(٣) التفسير وعلوم القرآن

١٦٠ ـ بيان ما نزل بعد الهجرة من الآيات وهو في سور مكية.

قال الحافظ: « وفي الحديث ردٌّ على النحّاس في زعمه أن سورة النساء مكّيّة مستنداً إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [النساء:٥٨]، نزلت بمكّة اتفاقاً في قصّة مفتاح الكعبة، لكنّها حجّة واهية، فلا يلزم من نزول آية أو آيات من سورة طويلة بمكّة إذا نزل معظمها بالمدينة أن تكون مكية، بل الأرجح أن جميع ما نزل بعد الهجرة معدود من المدني، وقد اعتنى بعض الأئمة ببيان ما نزل من الآيات المدنية في السور المكية، وقد أخرج ابن الضريس في (فضائل القرآن)، من طريق عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه عن ابن عباس: أن الذي نزل بالمدينة، **البقرة ثم الأنفال ثم الأحزاب ثم المائدة ثم الممتحنة والنساء ثم إذا زلزلت ثم الحديد ثم القتال ثم الرعد ثم الرحمن ثم الإنسان ثم الطلاق ثم إذا جاء نصر الله ثم النور ثم المنافقون ثم المجادلة ثم الحجرات ثم التحريم ثم الجاثية ثم التغابن ثم الصف ثم الفتح ثم براءة**، وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أنس: أن سورة **الكوثر** مدنية فهو المعتمد، واختلف في الفاتحة والرحمن والمطففين وإذا زلزلت والعاديات والقدر وأرأيت والإخلاص والمعوذتين، وكذا اختلف مما تقدم في الصف والجمعة والتغابن.

وهذا بيان ما نزل بعدالهجرة من الآيات مما في المكي فمن ذلك: **الأعراف**، نزل بالمدينة منها: ﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ ﴾ إلى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾، **يونس**: نزل منها بالمدينة ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ ﴾ آيتان، وقيل: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ ﴾ آية، وقيل: من رأس أربعين إلى آخرها مدني، **هود**: ثلاث آيات: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ ﴾، ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾، ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾،

النحل: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ الآية، ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ إلى آخر السورة، الإسراء: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ ﴾، ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي ﴾، ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾، ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾، ﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾، الكهف: مكية إلَّا أوّلها إلى ﴿ جُرُزًا ﴾، وآخرها من ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾، مريم: آية السجدة، الحج: من أوّلها إلى ﴿ شَدِيدٌ ﴾، و﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ ﴾، و﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾، و﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ﴾، و﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ ﴾، و﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾، و﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾، وما بعدها، وموضع السجدتين، و﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ ﴾، الفرقان: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ - إلى - ﴿ رَّحِيمًا ﴾، الشعراء: آخرها من ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ﴾، القصص: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ - إلى - ﴿ الْجَاهِلِينَ ﴾، و﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ ﴾، العنكبوت: من أولها إلى ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾، لقمان: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾، الم تنزيل: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا ﴾، وقيل: من ﴿ تَتَجَافَىٰ ﴾، سبأ: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾، الزمر: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ ﴾ - إلى - ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾، المؤمن: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ ﴾ والتي تليها، الشورى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ ﴾، و﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ﴾ - إلى - ﴿ شَدِيدٌ ﴾، الجاثية: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا ﴾، الأحقاف: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ﴾، وقوله: ﴿ فَاصْبِرْ ﴾، ق: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ ﴾ - إلى - ﴿ لُغُوبٍ ﴾، النجم: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ ﴾ - إلى - ﴿ اتَّقَىٰ ﴾، الرحمن: ﴿ يَسْأَلُهُۥ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾، الواقعة: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾، ن: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ - إلى - ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾، ومن ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ - إلى - ﴿ الصَّالِحِينَ ﴾، المرسلات: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴾، فهذا ما نزل بالمدينة من آيات من سور

تقدم نزولها بمكة ، وقد بيّن ذلك حديث ابن عباس عن عثمان قال: « كان رسول الله ﷺ كثيراً ما ينزل عليه الآيات فيقول: ضعوها في السورة التي يذكر فيها كذا »، وأما عكس ذلك وهو نزول شيء من سورة بمكة تأخّر نزول تلك السورة إلى المدينة، فلم أره إلَّا نادراً، فقد اتفقوا على أنَّ الأنفال مدنية لكن قيل أنَّ قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [الأنفال:٣٠] الآية، نزلت بمكة ثم نزلت سورة الأنفال بالمدينة، وهذا غريب جداً، نعم نزل من السور المدنية التي تقدّم ذكرها بمكة ثم نزلت سورة الأنفال بعد الهجرة في العمرة والفتح والحج ومواضع متعددة في الغزوات كتبوك وغيرها أشياء كثيرة كلها تسمى المدني اصطلاحا والله أعلم ». [الفتح:٨/ ٤١].

١٦١ ـ **قال الحافظ ابن حجر** عند شرح قول ابن مسعود في صحيح البخاري (أهذّاً كهذِّ الشعر): « وفي هذا الحديث من الفوائد كراهة الإفراط في سرعة التلاوة لأنه ينافي المطلوب من التدبر والتفكر في معاني القرآن، ولا خلاف في جواز السرد بدون تَدَبُّر لكن القراءة بالتَدبُّر أعظم أجرًا ». [الفتح:٢/ ٢٦٠].

١٦٢ ـ **رواية علي بن أبي طلحة التفسير عن ابن عباس.**

قال الحافظ: قال أبو جعفر النحاس في كتاب (معاني القرآن) له بعد أن ساق رواية علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس في تأويل الآية: هذا من أحسن ما قيل في تأويل الآية وأعلاه وأجلّه، ثم أسند عن أحمد بن حنبل قال: **بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدًا ما كان كثيراً**،انتهى. وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث رواها عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وهي عند

البخاري عن أبي صالح، وقد اعتمد عليها في صحيحه هذا كثيراً على ما بيّنّاه في أماكنه، وهي عند الطبري وابن أبي حاتم وابن المنذر بوسائط بينهم وبين أبي صالح. انتهى. [الفتح:٨/ ٤٣٨]، [مختصر الصواعق لابن القيّم:٢/ ١٩٩].

١٦٣ ـ أبو عبيدة معمر بن المثنى يطلق مجاز القرآن ويريد به التأويل. [الفتح:٨/ ٥٥٤].

١٦٤ ـ ذهب الجمهور إلى أنه ليس في القرآن شيء بغير العربية، وقالوا: ما ورد من ذلك فهو من توافق اللغتين.

قال الحافظ بعد النقل عن عكرمة تفسيره الجبت بالشيطان بلغة الحبشة، وعن سعيد بن جبير تفسيره بالساحر بلغة الحبشة، قال: وهذا مصير منهما إلى وقوع المعرب في القرآن، وهي مسألة اختلف فيها، فبالغ الشافعي وأبو عبيدة اللغوي وغيرهما في إنكار ذلك، **فحملوا ما ورد من ذلك على توارد اللغتين،** وأجاز ذلك جماعة واختاره ابن الحاجب واحتج له بوقوع أسماء الأعلام فيه كإبراهيم، فلا مانع من وقوع أسماء الأجناس، وقد وقع في صحيح البخاري جملة من هذا، وتتبّع القاضي تاج الدين السُّبكي ما وقع في القرآن من ذلك ونظمه في أبيات ذكرها في شرحه على (المختصر)، وعبّر بقوله: يجمعها هذه الأبيات، فذكرها.

وقد تتبعت بعده زيادة كثيرة على ذلك تقرب من عدّة ما أورد، ونظمتها أيضا، وليس جميع ما أورده هو متفقا على أنه من ذلك، لكن أكتفي بإيراد ما نقل في الجملة فتبعته في ذلك، وقد رأيت إيراد الجميع للفائدة، فأوّل بيت منها من نظمي، والخمسة التي تليه له، وباقيها لي أيضا، فقلت:

من المعرب عدّ التاج (كز) وقد ... ألحقت (كد) وضمتها الأساطير
السلسبيل وطه كوّرت بيع ... روم وطوبى وسجيل وكافور
والزنجبيل ومشكاة سرادق مع ... استبرق صلوات سندس طور
كذا قراطيس ربانيهم وغسا ... ق ثم دينار القسطاس مشهور
كذاك قسورة واليم ناشئة ... ويؤت كفلين مذكور ومسطور
له مقاليد فردوس يعد كذا ... فيما حكى ابن دريد منه تنور
وزدت حرم ومهل والسجل كذا ... السرى والأب ثم الجبت مذكور
وقطنا وإناه ثم متكأ ... دارست يصهر منه فهو مصهور
وهيت والسكر الأوّاه مع حصب ... وأوّبى معه والطاغوت منظور
صرهن إصرى وغيض الماء مع وزر ... ثم الرقيم مناص والسنا النور

والمراد بقولي (كز): أن عدة ما ذكره التاج سبعة وعشرون، وبقولي (كد): أن عدة ما ذكرته أربعة وعشرون، وأنا معترف أنني لم أستوعب ما يستدرك عليه، فقد ظفرت بعد نظمي هذا بأشياء تقدم منها في هذا الشرح الرحمن وراعنا، وقد عزمت أني إذا أتيت على آخر شرح هذا التفسير إن شاء الله تعالى ألحق ما وقفت عليه من زيادة في ذلك منظوما إن شاء الله تعالى. [الفتح: ٣/ ٢٣، ٨/ ٢٥٢].

١٦٥ ـ ما كان ناسخاً ومقدّماً في التلاوة وتأخّر عنه المنسوخ.

ذكر البخاري بسنده إلى ابن أبي مليكة قال: قال ابن الزبير: قلت لعثمان بن عفان ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾، قال: قد نسختها الآية الأخرى فلِمَ تكتبها أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي، لا أغيّر شيئاً منه من مكانه.

قال الحافظ ابن حجر: «وهذا الموضع مما وقع فيه الناسخ مقدما في ترتيب

التلاوة على المنسوخ، وقد قيل: إنه لم يقع نظير ذلك إلَّا هنا وفي الأحزاب على قول من قال: إن إحلال جميع النساء هو الناسخ وسيأتي البحث فيه هناك إن شاء الله تعالى.

وقد ظفرت بمواضع أخرى منها في البقرة أيضا قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ فإنها محكمة في التطوع مخصصة لعموم قوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ كونها مقدّمة في التلاوة، ومنها في البقرة أيضا قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ على قول من قال: إن سبب نزولها: أن اليهود طعنوا في تحويل القبلة، فإنه يقتضي أن تكون مقَدَّمة في التلاوة متأخرة في النزول، وقد تتبعت من ذلك شيئا كثيرا ذكرته في غير هذا الموضع ويكفى هنا الإشارة إلى هذا القدر ». [الفتح:٨/ ١٩٤].

١٦٦ ـ عادة السلف أن يذكر أحدهم في تفسير اللفظة بعض معانيها، أو لازماً من لوازمها، أو الغاية المقصودة منها، أو مثالاً ينبّه السامع على نظيره وهذا كثير في كلامهم لمن تأمّله. [مختصر الصواعق لابن القيم:٢/ ١٩٩].

وقد بحث ابن تيمية في كتابه [مقدمة في أصول التفسير:ص٨ وما بعدها]، اختلاف السلف في التفسير وقال: « إن غالب ما يصحّ عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ».

١٦٧ ـ **الأقوال في الذين استثنوا في الصعق** في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨].

قال الحافظ ابن حجر: وحاصل ما جاء في ذلك ـ أي الاستثناء ـ عشرة أقوال: **الأول**: أنهم الموتى كلّهم، لكونهم لا إحساس لهم، فلا يصعقون، وإلى هذا جنح القرطبي في (المفهم)، وفيه ما فيه، ومستنده أنه لم يرد في تعيينهم خبر

صحيح، وتعقبه صاحبه القرطبي في (التذكرة)، فقال: قد صحّ فيه حديث أبي هريرة، وفي (الزهد) لهناد بن السري عن سعيد بن جبير موقوفا: « هم الشهداء »، وسنده إلى سعيد صحيح، وسأذكر حديث أبي هريرة في الذي بعده، وهذا هو القول **الثاني**، **الثالث**: الأنبياء، وإلى ذلك جنح البيهقي في (تأويل الحديث)، في تجويزه أن يكون موسى ممن استثنى الله، قال: ووجهه عندي، أنهم أحياء عند ربهم كالشهداء، فإذا نفخ في الصور النفخة الأولى صعقوا، ثم لا يكون ذلك موتًا في جميع معانيه إلَّا في ذهاب الاستشعار، وقد جوّز النبي ﷺ أن يكون موسى ممن استثنى الله، فإن كان منهم فإنه لا يذهب استشعاره في تلك الحالة بسبب ما وقع له في صعقة الطور. ثم ذكر أثر سعيد بن جبير في الشهداء، وحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه سأل جبريل عن هذه الآية: مَن الذين لم يشأ الله أن يصعقوا؟ قال: « هم شهداء الله ﷻ ». صحّحه الحاكم، ورواته ثقات، ورجّحه الطبري. **الرابع**: قال يحيى بن سلام في تفسيره: بلغني أن آخر من يبقى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم يموت الثلاثة، ثم يقول الله لملك الموت: مُت فيموت. قلت: وجاء نحو هذا مسندًا في حديث أنس، أخرجه البيهقي وابن مردويه بلفظ: « فكان ممن استثنى الله ثلاثة: جبريل وميكائيل وملك الموت »، الحديث وسنده ضعيف، وله طريق أخرى عن أنس ضعيفة أيضا عند الطبري، وابن مردويه وسياقه أتم، وأخرج الطبري بسند صحيح عن إسماعيل السُدي، ووصله إسماعيل بن أبي زياد الشامي في تفسيره عن ابن عباس مثل يحيى بن سلام، ونحوه عن سعيد بن المسيب، أخرجه الطبري وزاد: « ليس فيهم حملة العرش لأنهم فوق السماوات ». **الخامس**: يمكن أن يؤخذ مما في **الرابع**، **السادس**: الأربعة المذكورون وحملة العرش، وقع ذلك في حديث أبي هريرة الطويل المعروف بحديث الصور، وقد

تقدّمت الإشارة إليه، وأنّ سنده ضعيف مضطرب، وعن كعب الأحبار نحوه، وقال: هم اثنا عشر، أخرجه ابن أبي حاتم، وأخرجه البيهقي من طريق زيد بن أسلم مقطوعا، ورجاله ثقات، وجمع في حديث الصور بين هذا القول وبين القول أنهم الشهداء، ففيه: فقال أبو هريرة: يا رسول الله، فمن استثنى حين الفزع؟ قال: « الشهداء »، ثم ذكر نفخة الصعق على ما تقدم. **السابع**: موسى وحده، أخرجه الطبري بسند ضعيف عن أنس وعن قتادة، وذكره الثعلبي عن جابر. **الثامن**: الوِلْدان الذين في الجنة والحور العين. **التاسع**: هم وخزّان الجنة والنار وما فيها من الحيات والعقارب، حكاهما الثعلبي عن الضحاك بن مزاحم. **العاشر**: الملائكة كلّهم، جزم به أبو محمد بن حزم في (الملل والنحل)، فقال: الملائكة أرواح لا أرواح فيها فلا يموتون أصلاً. وأمّا ما وقع عند الطبري بسند صحيح عن قتادة قال: قال الحسن: يستثني الله وما يدع أحداً إلّا أذاقه الموت، فيمكن أن يُعَدَّ قولاً آخر. قال البيهقي: استضعف بعض أهل النظر أكثر هذه الأقوال لأن الاستثناء وقع من سكان السماوات والأرض، وهؤلاء ليسوا من سكانها لأن العرش فوق السماوات، فحملته ليسوا من سكانها وجبريل وميكائيل من الصافين حول العرش، ولأنّ الجنة فوق السماوات، والجنة والنار عالمان بانفرادهما خلقتا للبقاء، ويدلّ على أن المستثنى غير الملائكة ما أخرجه عبد الله بن أحمد في (زوائد المسند)، وصحّحه الحاكم من حديث لقيط بن عامر مطولا وفيه: « يلبثون ما لبثتم ثم تبعث الصائحة فلعمر إلهك ما تدع على ظهرها من أحد إلّا مات، حتى الملائكة الذين مع ربك ». [الفتح:١١/ ٣٧٠].

١٦٨ ـ الكذبات الثلاث من إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والمراد بها، ومعنى قوله: ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾.

قال الحافظ: قوله « لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلَّا ثلاث كذبات »، قال أبو البقاء: الجيِّد أن يقال بفتح الذال في الجمع، لأنه جمع كذْبة بسكون الذال، وهو اسم لا صفة، لأنك تقول كذب كذبة كما تقول ركع ركعة، ولو كان صفة لكان في الجمع، وقد أورد على هذا الحصر ما رواه مسلم من حديث أبي زرعة عن أبي هريرة في حديث الشفاعة الطويل فقال في قصة إبراهيم: وذكر كذباته، ثم ساقه من طريق أخرى من هذا الوجه وقال في آخره: وزاد في قصة إبراهيم وذكر قوله في الكوكب ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾، وقوله لآلهتهم ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾، وقوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ، انتهى. قال القرطبي: ذكر الكوكب يقتضي أنها أربع، وقد جاء في رواية ابن سيرين بصيغة الحصر، فيحتاج في ذكر الكوكب إلى تأويل، قلت: الذي يظهر أنها وهم من بعض الرواة، فإنه ذكر قوله في الكوكب بدل قوله في سارة، والذي اتفقت عليه الطرق، ذكر سارة دون الكوكب، وكأنه لم يعد مع أنه أدخل من ذكر سارة لما نقل أنه قاله في حال الطفولية، فلم يعدّها لأن حال الطفولية ليست بحال تكليف، وهذه طريقة ابن إسحاق، وقيل: إنما قال ذلك بعد البلوغ لكنه قاله على طريق الاستفهام الذي يقصد به التوبيخ، وقيل: قاله على طريق الاحتجاج على قومه تنبيها على أنّ الذي يتغير لا يصلح للربوبية، وهذا قول الأكثر أنه قال توبيخا لقومه أو تهكّما بهم وهو المعتمد، ولهذا لم يعد ذلك في الكذبات، وأما إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة، فلكونه قال قولاً يعتقده السامع كذباً لكنه إذا حُقِّق لم يكن كذباً، لأنّه من باب المعاريض المحتملة للأمرين، فليس بكذب محض، فقوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ، يحتمل أن يكون أراد إني سقيم أي سأسقم، واسم الفاعل يستعمل بمعنى المستقبل كثيراً، ويحتمل أنه

أراد إني سقيم: بما قدّر علي من الموت، أو سقيم الحجّة على الخروج معكم، وحكى النووي عن بعضهم: أنه كان تأخذه الحمى في ذلك الوقت، وهو بعيد، لأنه لو كان كذلك لم يكن كذباً لا تصريحاً ولا تعريضاً، وقوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾، قال القرطبي: هذا قاله تمهيدًا للاستدلال على أن الأصنام ليست بآلهة، وقطعًا لقومه في قولهم أنها تضر وتنفع، وهذا الاستدلال يتجوّز فيه في الشرط المتصل، ولهذا أردف قوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ بقوله: ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾، قال ابن قتيبة: معناه إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا، فالحاصل أنه مشترط بقوله إن كانوا ينطقون أو أنه أسند إليه ذلك لكونه السبب. وعن الكسائي: أنه كان يقف عند قوله: بل فعله، أي فعله من فعله كائنا من كان، ثم يبتدئ كبيرهم هذا، وهذا خبر مستقل، ثم يقول: فاسألوهم إلى آخره، ولا يخفى تكلّفه. وقوله: (هذه أختي)، يعتذر عنه: بأن مراده أنها أخته في الإسلام، كما سيأتي واضحاً. قال ابن عقيل: دلالة العقل تصرف ظاهر إطلاق الكذب على إبراهيم، وذلك أن العقل قطع بأن الرسول ينبغي أن يكون موثوقاً به ليعلم صدق ما جاء به عن الله، ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه، فكيف مع وجود الكذب منه، وإنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع، وعلى تقديره فلم يصدر ذلك من إبراهيم عليه السلام ـ يعني إطلاق الكذب على ذلك ـ إلَّا في حال شدّة الخوف لعلوِّ مقامه، وإلاّ فالكذب المحض في مثل تلك المقامات يجوز، وقد يجب لتحمل أخفّ الضررين دفعاً لأعظمهما، وأما تسميته إيّاها كذبات، فلا يريد أنها تذم، فإن الكذب وإن كان قبيحا مخلاًّ، لكنه قد يحسن في مواضع وهذا منها ».

[الفتح:٦/ ٣٩١].

١٦٩ ـ آيات في كتاب الله قيل عن كل آية منها إنها أرجى آية في كتاب الله.

قال الحافظ: قوله: ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ﴾ قال مسلم حدثنا حبان بن موسى أنبأنا عبد الله بن المبارك قال: هذه أرجى آية في كتاب الله.

وقال أيضاً: « قيل: إن هذه الآية ـ ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ:١٧] ـ أرجى آية في كتاب الله من جهة الحصر في الكفر، فمفهومه أن غير الكفر بخلاف ذلك، ومثله ﴿ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه:٤٨]، وقيل: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى:٥]، وقيل: ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٠]، وقيل: ﴿ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء:٨٤]، وقيل: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الزمر:٥٣] الآية، وقيل: آية الدَّين، وقيل: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ ﴾ [النور:٢٢]، وهذا الأخير نقله مسلم في صحيحه عن عبد الله بن المبارك عقب حديث الإفك، وفي (كتاب الإيمان)، من مستدرك الحاكم عن ابن عباس قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ ». [الفتح:٨/ ٤٧٨، ٥٣٧].

١٧٠ ـ مما قيل في معنى قوله تعالى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾.

قال الحافظ ابن حجر: قال عياض: اختلفوا في تأويل قوله تعالى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾، فقيل: المتقدم ما قبل النبوة، والمتأخر العصمة. وقيل: ما وقع عن سهو أو تأويل. وقيل: المتقدم ذنب آدم والمتأخر ذنب أمته. وقيل: المعنى أنه مغفور له غير مؤاخذ لو وقع. وقيل غير ذلك. قلت: واللاّئق بهذا المقام القول الرابع، وأما الثالث فلا يتأتى هنا. [الفتح: ١١/ ٤٣٥ـ٤٣٦، وانظر: ١١/ ١٩٨].

١٧١ ـ المعاني التي يرد لها لفظ (قضى)، في القرآن الكريم.

قال الحافظ: قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أخبرناهم أنهم سيفسدون، والقضاء على وجوه: قضى ربك: أمر،ومنه الحكم ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾، ومنه الخلق ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾: خلقهن.

قال أبو عبيدة في قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي أخبرناهم، وفي قوله ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾: أي أمر، وفي قوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾: أي يحكم، وفي قوله ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾: أي خلقهن، وقد بيّن أبو عبيدة بعض الوجوه التي يَرِد بها لفظ القضاء وأغفل كثيرا منها، واستوعبها إسماعيل بن أحمد النيسابوري في كتاب (الوجوه والنظائر)، فقال: لفظة قضى في الكتاب العزيز جاءت على خمسة عشر وجهاً: الفراغ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾، والأمر: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾، والأجل: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾، والفصل: ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، والمضي: ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، والهلاك: ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾، والوجوب: ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، والإبرام: ﴿فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾، والإعلام ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، والوصية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، والموت: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾، والنزول: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾، والخلق: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾، والفعل: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾: يعني حقا لم يفعل، والعهد: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾، وذكر غيره القدر المكتوب في اللوح المحفوظ كقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾، والفعل: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾، والوجوب: ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: أي وجب لهم العذاب، والوفاء: كفائت العبادة، والكفاية: ولن يقضى عن أحد من بعدك. انتهى.

وبعض هذه الأوجه متداخل، وأغفل أنّه يرد بمعنى الانتهاء: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾، وبمعنى إلاتمام: ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾، وبمعنى كتب: ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾، وبمعنى الأداء وهو ما ذكر بمعنى الفراغ، ومنه: قضى دينه، وتفسير: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾، بمعنى وصّى منقول من مصحف أبي بن كعب، أخرجه الطبري وأخرجه أيضا من طريق قتادة قال: هي في مصحف ابن مسعود: ووصى. ومن طريق مجاهد في قوله: (وقضى) قال: وأوصى. ومن طريق الضحاك أنه قرأ (ووصى) وقال: ألصقت الواو بالصاد فصارت قافا فقرئت وقضى كذا قال، واستنكروه منه، وأما تفسيره بالأمر كما قال أبو عبيدة، فوصله الطبري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، ومن طريق الحسن وقتادة مثله وروى ابن أبي حاتم من طريق ضمرة عن الثوري قال: معناه أمر ولو قضى لمضى ـ يعني لو حكم ـ وقال الأزهري: القضاء مرجعه إلى انقطاع الشيء وتمامه، ويمكن رد ما ورد من ذلك كله إليه وقال الأزهري أيضا: كل ما أحكم عمله أو ختم أو أكمل أو وجب أو ألهم أو أنفذ أو مضى فقد قضى، وقال في قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾: أي أعلمناهم علما قاطعا انتهى. [الفتح:٨/ ٣٨٩].

١٧٢ ـ المعاني التي يرد لها معنى (فرض)، وأنه بمعنى الواجب، والألفاظ في الشرع لا تحمل على الاصطلاح الحادث.

قال الحافظ: قوله (التي فرض رسول الله ﷺ على المسلمين) ... ومعنى فرض هنا أوجب أو شرع يعني بأمر الله تعالى، وقيل: معناه قدر، لأنّ إيجابها ثابت في الكتاب، ففرض النبي ﷺ لها بيانه للمجمل من الكتاب بتقدير الأنواع والأجناس، وأصل الفرض قطع الشيء الصلب، ثم استعمل في التقدير لكونه مقتطعا من الشيء الذي يقدر منه، ويرد بمعنى البيان كقوله

تعالى: ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾، وبمعنى الإنزال كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾، وبمعنى الحل كقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾، وكل ذلك لا يخرج من معنى التقدير، ووقع استعمال الفرض بمعنى اللزوم حتى كاد يغلب عليه، وهو لا يخرج أيضا عن معنى التقدير، وقد قال الراغب: كل شيء ورد في القرآن فرض على فلان فهو بمعنى الإلزام، وكل شيء فرض له فهو بمعنى لم يحرمه عليه، وذكر أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾، أي أوجب عليك العمل به، وهذا يؤيد قول الجمهور: إن الفرض مرادف للوجوب، وتفريق الحنفية بين الفرض والواجب باعتبار ما يثبتان به لا مشاحة فيه، وإنما النزاع في حمل ما ورد من الأحاديث الصحيحة على ذلك، لأن اللفظ السابق لا يحمل على الاصطلاح الحادث والله أعلم. [الفتح:٣/ ٣١٨].

١٧٣ ـ قال الشوكاني في تفسيره لسورة القدر: قال سفيان: كل ما في القرآن من قوله « وما أدراك » فقد أدراه، وكل ما فيه « وما يدريك » فلم يدره، وكذا قال الفرّاء. [فتح القدير للشوكاني:٥/ ٥٩٣].

١٧٤ ـ قال الإمام البخاري: قال ابن عباس رضي الله عنهما: « كل **سلطان** في القرآن فهو حجة ».

قال الحافظ ابن حجر: وصله ابن عيينة في تفسيره عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس، وهذا على شرط الصحيح. [صحيح البخاري مع الفتح:٨/ ٣٨٩، ٣٩١].

١٧٥ ـ قال ابن عيينة: ما سمّى الله مطراً في القرآن إلَّا عذاباً.

قال ابن حجر: وقد تعقب كلام ابن عيينة بورود المطر بمعنى الغيث في

القرآن، في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾، فالمراد به هنا الغيث قطعاً. [الفتح:٨/ ٣٠٨].

١٧٦ ـ حكى البغوي في تفسيره عن الواحدي قال: كل ما في القرآن (لعل)، فهو للتعليل إلَّا هذا الحرف ـ وهو ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ـ فإنه للتشبيه.

قال الحافظ: كذا قال، وفي الحصر نظر، لأنه قد قيل مثل ذلك في قوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾. [الفتح:٨/ ٤٩٨].

❊ ❊ ❊

obeikandl.com